(العجائبي في الرحلة الحجازية الجزائرية)

- رحلة الورثلاني "نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار أنموذجا-

د/ سعاد ترشاق، جامعة سطيف 2

ملخص:

يمتلك أدب الرحلة آفاقا متعددة، إذ ينفتح على أكثر من خطاب، وتلتقي عنده الفنون، لذلك يمكن عدّه شكلا متقدما لما يسمى اليوم بتداخل الأجناس الأدبية، فبين طياته النص التوثيقي الواقعي والتاريخي والتخييلي، كما يتداخل فيه السرد والوصف والتقرير، ويحتل فيه العجائبي والعجيب حيزا بارزا، وهو موضوع البحث من خلال رحلة "الورثلاني" وهي أهم رحلة جزائرية بل وحتى مغاربية في العهد العثماني، بالنظر إلى ما شملته من أخبار أدبية وتاريخية واجتماعية وسياسية وأوصاف دقيقة للمدن والأماكن التي مرّت بها.

كلمات مفتاحية: العجائبي ،الرحلة الحجازية، رحلة الورثلاني

Résumé:

La littérature du voyage a de multiples horizons, s'ouvre à plus d'un discours, et l'art s'y rencontre, ce qui peut être considéré comme une forme avancée de ce que l'on appelle aujourd'hui le jeu des races littéraires, le récit factuel, historique et figuratif, la narration, la description et le rapport. , Qui est le sujet de la recherche à travers le voyage "Alorthalani", le voyage le plus important de l'Algérie et même Maghrébin à l'époque "Ottomanes" , compte tenu des nouvelles littéraires, historiques, sociales et politiques et des descriptions précises des villes et lieux.

تمهيد:

الرحلة الحجازية هي الرحلة التي تتخذ السفر إلى البقاع المقدسة "مكة المكرمة" بقصد إتمام الركن الخامس من أركان الدين الإسلامي موضوعا لها، وقد شاعت في الجزائر كما في بلدان المغرب العربي الذين عرفوا بالميل الشديد للمشرق، وبالتوق لزيارة الكعبة الشريفة ومعالم الرسالة المحمدية النبيلة.

ورحلة الورثلاني الموسومة بـ: "نزهة النظار في فضل علم التاريخ والأخبار" لصاحبها الحسين بن محمد الورثلاني (1125هـ/ 1193هـ) (نسبة إلى بلدة بني ورثيلان بسطيف)، واحدة من أبرز الرحلات التي قام بها الجزائريون في العهد العثماني عبر خط السير الآتي:

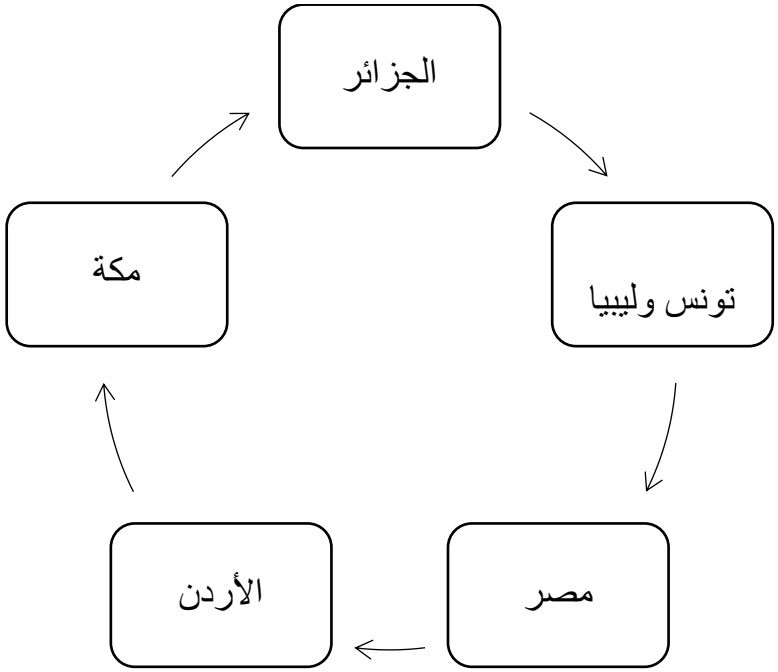

وتعد هذه الرحلة -بالنظر إلى ما فيها من أخبار سياسية واجتماعية ودينية وثقافية- <<من أهم الوثائق التاريخية التي تؤرخ لفترة العهد العثماني، وترسم صورة الحياة فيه في الجزائر وفي الوطن العثماني.>>[1] ، كما تعد من جهة أخرى <<أدبا من أدبيات التواصل وتمثل أشبه ما يكون مقدمة لما أصبح يعرف "الروبورتاج" الصحفي (Reportage) بعض الشيء، أي نوع من التقرير الممزوج بالنص التاريخي والأنثروبولوجي والروائي والمذكراتي...>>.[2]

وعلى الصعيد الدلالي، هي من النصوص المفتوحة بما يسكنها من عجائبية، ليس بمفهوم الأسطورة أو اللامعقول، بل بما ينتاب القارئ من لبس وهو يصادف ويقرأ عن أمور غريبة وأفعال لا يملك لها تفسيرا ولا يقبلها عقله، وما يزيد الأمر غموضا في ذهن المتلقي هو أن صاحبها من أهل الفضل والعلم والتصديق غير أنه سار إلى الحج بنفس متصوفة ترى بأعين المتصوفة ما لا يراه غيرهم، رغم ما في ذلك من لبس، وما يوجه لهم من انتقادات حول ما يعتقدونه ويروجون له من روايات وقصص هي للخيال أقرب من الواقع، وللكفر أقرب من الإيمان خاصة فيما يعتقدونه من أفكار كالحلول ومسألة العشق وغيرها.[3]

أما الورثلاني نفسه فيقدمه نصه على أنه رحالة قاصا وواعظا مذكرا، ما يجعل خطابه يدخل مجال خطابات دينية أخرى أبرزها الخطاب الصوفي.

التداخل بين الو اقع واللاو اقع/ العجائبي في رو اية الورثلاني:

العجائبي هو عالم من نسج الخيال يتحرر فيه الحدث من الواقع ليمتزج باللاواقعي واللاطبيعي. والغريب والعجيب لا يبتعدان من حيث الدلالة على البعد عن الاستيعاب والإبهام والحيرة اتجاه ما هو غير مألوف من الأمور، وقد عدّ السعيد يقطين الغريب يتوسط العجيب والمألوف انطلاقا من أن <<الأنماط الأساسية الثلاثة التي نحددها من خلال علاقة الكلام (الخبر) بالتجربة تنطلق من الأليف إلى العجيب مرورا بالغريب، وتنبني على ثلاثة أنماط من الإدراك تذهب من الحواس الظاهرة (الواقعي) إلى المتصرفة (التخيلي) مرورا بالحواس الباطنة (التخييلي) على الشكل:

الأليف: الواقعي

الغريب: التخييلي

العجيب: التخيلي>>[4]

ومهما تعددت المصطلحات فالذي لا ريب فيه أننا <<نستطيع أن نميز العادي من الخارق للطبيعة بمقياس أساسي وهو ما أثار حيرتنا ودهشتنا ولا تتقبله عقولنا ولا تستطيع أن تفسره الطبيعة. على أن الحيرة نسبية فهي تختلف بحسب السن والمعرفة والمعتقد والبيئة.>>[5]

وقد ذكر الورثلاني في بداية حديثه ما يفيد أن نصه لا يخلو من غريب وعجيب قائلا: <<أنشأت رحلة عظيمة يستعظمها البادي، ويستحسنها الشادي، فإنها تزهو بمحاسنها عن كثير من كتب الأخبار مبينا فيها بعض الأحكام الغريبة والحكايات المستحسنة والغرائب العجيبة وبعض الأحكام الشرعية.....>>[6]

ويلاحظ في تعامله معه تفريقه بين مستويين من العجيب، مستوى أول قابل للتصديق -على الأقل من وجهة نظر الرحالة كما سيتم بيانه-، ومستوى آخر استغربه هو بالذات كحديثه مثلا عن مدينة الإسكندرية ووصفه لما بما فيها من معالم عجيبة –على حد تعبيره- كمنارتها وأعمدتها.[7]

وأما الواقعي في النص فله حضوره القوي، فالورثلاني والركب الذي اصطحبه والفضاء بامتداده المكاني والزماني كلها من الواقع الذي يشهد له بالحضور التاريخ.

تجليات العجائبي في الرحلة:

تتأسس رحلة الورثلاني على مبدأ الإخبار بنقل تجربة واقعية أليفة (الرحلة للحج)، ولكنها في محطات كثيرة من متنها تجاوزت التجربة التي يمكن أن يمر بها كل حاج لتحدّث بما يفوق العادة والواقع والتصديق، منها ما رواه من رؤى وكرامات مرتبطة بالأماكن انطلاقا من تجربته الصوفية، ما جعل نصه يتجاذبه خطابان رئيسان: خطاب الرحلة وخطاب التصوف، ومن تجليات العجائبي في رحلته:

الرؤيا:

للرؤية موقع مميز في الثقافة الإسلامية، وقد حدّث بها القرآن الكريم وارتبطت حياة بعض الأنبياء بالرؤى كرؤيا يوسف عليه السلام وإبراهيم الخليل وغيرهما.[8] وأما الرؤيا عند العامة فقد تباينت مواقف الناس منها بين مؤيد ومعارض خاصة رؤيا المتصوفة، وفي ذلك يقول أحد الباحثين: <<أصحاب الغلو والإفراط من المتصوفة، ومن شاكلهم الذين غلوا غلوّا في الرؤيا فجعلوها مصدرا للتشريع لا يتطرق إليه شك ولا غلط عندهم، بل يجعلونها مصدرا يقينيا يبنون عليها كثيرا من عقائدهم ويستندون إليها في ترويج ضلالتهم، ومعرفة الحلال والحرام عندهم.>>[9]

وهي عند المتصوفة بمقام عال لأنها مصدر من مصادر معرفتهم والتشريع لديهم، لذلك عبّر أحد الباحثين عن موقع الرؤى في دوائر التصوف قائلا: <<الرؤى والمنامات مصدر مهم عند الصوفية للمعرفة والتلقي بل هي مصدر يقيني لا يتطرق إليه الشك أو الغلط، فهم يبنون عليها كثيرا من عقائدهم الباطلة ويستندون عليها في ترويج ضلالتهم ومعرفة الحلال والحرام عندهم وتفسير آيات القرآن الكريم وتصحيح وتضعيف الأحاديث، ونسج الفضائل والمناقب لشيوخهم>>.[10]

والورثلاني -كعادة أهل التصوف- يؤمن بالرؤيا، ومن تجليات إيمانه بها ما ذكره عن رؤية النبي صلى الله عليه وسلم ورؤية الله تعالى قائلا: <<وسيدي المحفوظ كان يرى النبي صلى الله عليه وسلم ويرى الله تعالى أيضا حسبما تراه في مرائيه >>.[11]

وقوله و-هو يزور قبر حمزة رضي الله عنه-: <<ولا بدع فإن للنبي صلى الله عليه وسلم تعلقا معنويا وموافقة روحانية لأمته في سائر شؤونهم وتقلباتهم...فكذلك حاله صلى الله عليه وسلم مع أمته بعد موته وقد قال حياتي لكم ومماتي لكم الحديث فهو معهم صلى الله عليه وسلم في كل أطوارهم وتقلباتهم بمدده الرباني وسره الحقاني يستغفر لمسيئهم ويشفع له ويشهد لمحسنهم ويستوهب له من الله الزيارة ولا يخفى عليه شيء من أحوالهم ولا

يغفل عنهم طرفة عين في كل شؤونهم فلا يستبعد حضوره صلى الله عليه وسلم بروحانيته في محافل المسلمين ومواسمهم ومحال اجتماعهم على أي حال كانوا فلو فارقتهم روحانيته صلى الله عليه وسلم الشريفة طرفة عين لضلوا عن سواء الطريق، ولهوت بهم الضلالة في مكان سحيق، فسبحان من منّ به على عباده، وجعله برزخا بينه وبين أهل وداده...>>.[12]

والرؤيا –أيضا- عنده مرتبطة بالصالحين، فهي لا تقتصر على رؤية النبي صلى الله عليه وسلم وفي ذلك قال: <<أخبرنا شيخنا أبو مهدي عيسى الثعالبي عن بعض مشايخه أن سيدي عبد الوهاب الشعراني عزم مرة على التخلف عن مولد سيدي أحمد البدوي وأن لا يذهب لما يقع هنالك من المناكر فلما عزم على ذلك وقرب الوقت رأى في المنام سيدي عبد العالي خديم الشيخ سيدي أحمد البدوي وخليفته من بعده فقال له مباسطا يا عبد الوهاب لا تنقطع عن زيارتنا ونحن نطعمك ملوخية ... فلما استيقظ عزم على المشي فذهب فكان من الأمر الغريب الدال على صدق الرؤيا ليلة وصوله لمكان الشيخ أتفق أنه لم يطبخ أحد تلك الليلة في الزاوية كلها ولا في القرى التي حولها إلا الملوخية فكانت طعامه وطعام أهل تلك الناحية في تلك الليلة>>.[13]

وتمتد الرؤيا إلى رؤيا الله تعالى، وقد ذكر وهو يحدث عن الشيخ سيدي أحمد بن باباس وولده وذكر أن له كرامات عظيمة ومراء طيبة منها رؤية الله تعالى مرارا ورؤية نبيه صلى الله عليه وسلم.[14]

وهنا لا بد من القول أن ما جاء به الرحالة ليس غريبا عن الثقافة الإسلامية وقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله: <<من رآني في المنام فقد رآني في اليقظة>>، وعن القرطبي قوله: <<والرؤيا حالة شريفة ومنزلة رفيعة>>.[15] وقد وردت عنها الأحاديث الكثيرة في الأسانيد الصحيحة، ولكن الغرابة اكتنفتها في هذا المقام لارتباطها بشخصيات ومقامات صوفية وقد ظهر عنهم اتخاذهم الرؤيا مصدرا للتشريع والتلقي، وبما عرف عن بعضهم من تحريم للحلال وتحليل للحرام.[16]

عجائبية المكان:

لا يمكن لأي ناظر في أدبيات الرحلة إنكار قيمة المكان كمكون أساسي فيها، لأنه يحدد نوعها ويتحكم كثيرا في الزمن المرتبط بها كما هو الحال في الرحلات الحجية أو الحجازية التي ترتبط مكانيا بمكان الانطلاق، وغالبا ما يكون موطن الرحالة، وبمكة منتهى الرحلة وهدفها، وزمنيا بموسم الحج الذي به يحدد موعد الانطلاق، وفيه يصبح لمكة مفهوما آخر إذ ترتبط بشعيرة الركن الخامس من أركان الإسلام.

وتظهر قيمة أخرى للمكان في أدب الرحلات من حيث ثرائه بتنوع مصادر الحكي فيها، ولما كانت رحلة الورثلاني تتقاطع في أحداثها ومن حيث منشئها بالفكر الصوفي ، فإنها دلت على ذلك بالنظر إلى الأبعاد التي أعطاها ساردها للأماكن، فخرجت من طابعها الواقعي الحقيقي لتسكن مجال المستحيل واللامعقول عند من لا يمتلك رؤية صوفية، وحتى عند من ليس متشبعا بالثقافة الدينية، لذلك تعد رحلة الورثلاني -من هذا الجانب- من أغنى الرحلات وأكثرها تكثيفا للصور وارتباطا بالمخيال الشعبي الجزائري والعربي في تماهيه الروحاني، وأمثلة ذلك كثيرة إن لم نقل أن جزءا كبيرا من رحلته هي رسم لفضاء صوفي تسبح فيه الشخصيات والأماكن، وفضاء الرحلة كله يدور في عالم روحاني يضع القارئ أمام دهشة حقيقية بين رغبة في التصديق، إذا كان صاحب مرجعية دينية إسلامية، وبين منكر مستفهم عن الأسباب التي جعلت الرجل يعتقد بما يرويه، بالنظر إلى أن تقاطع الرحلة مع الواقعي وارتباطها بأمكنة وشخصيات معترف بها تاريخيا وثقافيا.

وقد خصص الورثلاني مساحات من خطابه ذكر فيها أماكن كثيرة خصها بالوصف العجيب أو ربطها بما هو عجيب من الأحداث، وجعلها مخصوصة بالتشريف والزيارة، ومنها الآبار التي ارتبطت تاريخيا بسيرة النبي صلى الله عليه وسلم، وروي عنه أنه تفل أو توضأ فيها أو شرب منها ، <<فاكتسبت بذلك فضلا على غيرها فصارت مقصودة بالزيارة والاستشفاء بمائها>>[17]، وقد استغرق ذكرها صفحات كثيرة، ومنها بئر أريس، وذكره اقترن برواية غريبة مفادها أن الزيارة تستحب له قصد الشرب منه بسبب ما وصل عنه من أخبار، فقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه خرج إليه وكذلك أبو موسى الأشعري وأبو بكر وعمر وهناك لحق بهم عثمان بن عفان وبشرهم بالجنة، وأن خاتم النبي كان في يد أبي بكر ثم عمر ثم في يد عثمان إلى أن سقط منه في بئر أريس فلم يعثر عليه، كما يروى أن النبي تفل فيه وبسبب ذلك صار ما ينمو من عنب في حديقة بالقرب منه مطلبا للعامة.[18]

ومن الأماكن عين مباركة وصفها بأنها بالربكة وبأنها من أغزر العيون وأحلاها ماء وألذها، وبها جل انتفاع أهل المدينة وفي ذلك قال: <<ولقد شاهدت من يستشفي بمائها فيشفى وقد حملنا بعضها للاستشفاء>>[19] ومن الآبار بئر بضاعة ويقال أن النبي صلى الله عليه وسلم بصق فيها وأنه توضأ بدلو وردها إلى البئر فكان إذا مرض مريض طلب ماءها ليغتسل قصد الشفاء، وقد أيد الرواية برواية عن أسماء بنت أبي بكر.[20] ومما يلاحظ أن الرحالة وقف على سبعة آبار ذكر أن زيارتها بركة وواجبة على كل زائر لبيت الله الحرام، فهل لهذا ارتباط بتقديس العرب والمسلمين للعد سبعة خاصة وأنه ذكر بئرين اثنين تخلف عن زيارتهما.[21] ما يعني احتكام الرجل للمرويات.

ومن عجيب ما رواه أن تراب صعيب كان يستعمل للتداوي من الحمى استنادا إلى قول للرسول صلى الله عليه وسلم.[22]

ومما يؤيد فكرة إيمانه واعتقاده بما هو عجيب تفريقه بينه /العجيب/ وبين الخرافة ويتضح ذلك من قوله: <<ومن جملة خرافاتهم –يقصد بعض أهل مكة- أنهم يأخذون معهم نوى التمر فيدفنونه بالأرض في ذلك الجبل تلك الليلة ويزعمون أن من دفن شيئا حصل له في تلك السنة بعدده ريالا أو دنانير وأغرب من ذلك ما حكى لي بعض أصحابنا تصديقا لزعمهم ذلك أن الشيخ علي بن الحمال الشافعي وكان من فقهاء مكة المعتبرين خرج مع بعض أهل مكة في بعض السنين إلى هذا المحل فلما رأى فعلهم ذلك أنكره ثم أنه جمع شيئا من النوى حتى جمع نحو المائتين فدفنها ثم وجد سبعا أخرى ودفنها وهو في ذلك كالمتلاعب فلما كان وقت الموسم بينما هو جالس في المسجد الحرام إذ جاء شخص من أهل العراق يسأل عنه حتى وجده فناوله صرة كبيرة وقال له أن جماعة من طلبة الإحسان كانوا يقرؤون هنا عندك قبل ذلك وقد جمعوا لك هذه الدراهم بقصد التبرك منك وقد سلموا عليك وهذه مائتا ريال قال فوقع في نفسي تصديق ما زعموا وأني كنت دفنت مائتي نواة ثم قلت وأين السبعة التي دفنتها بعد ذل فلم ارم مكاني حتى رجع إلي ذلك الشخص وقال لي يا سيدي وهذه سبعة أخرى قد تبعني بها شخص بعدما فارقت الجماعة وقال لي أوصلها إلى الشيخ عجبت من ذلك ومن موافقته>>[23]

إن ما جاء في رحلة الورثلاني من حديث عن الأمكنة يجعله مميزا ليس على الصعيد الغرائبي ولكن بالنظر إلى واقعيتها لأنه لم يقم باجتزاء المكان ليجعله مسرحا لخياله، إنه يصف المكان ذاته الواقعي دون أن يغير فيه، هذا ما يضع مفهوم العجائبي عنده في خانة لأن طائفة كبيرة من قرائه لن تعتبر حديثه إلا صدقا ووصفا لما هو واقع فعلا لأهل الكرامات من الأولياء والصالحين والمتصوفة، خاصة إذا أدركنا أن تعامله مع المكان ليس تعاملا من أجل التخييل بل طلبا للنصح وتذكيرا ببعض الأعلام ووصفا لموكب الحجيج ومن معهم من أهل الكرامات. وهو في ذلك ينفتح على خطابات أخرى أبرزها التاريخي والأسطوري والفلكلور الشعبي من جهة، ويخضع لتراتبية الزمن حسب خط الرحلة حتى وإن تخلل السرد والوصف بعض الوحدات الصغرى التي تفرض نفسها عندما يستطرد السارد للإخبار عن أمر تاريخي أو ديني.

عجائبية الشخصيات:

إذا كانت الشخصية في الرواية أو في فنون سردية أخرى من صنع الراوي ونتاج مخيلته، فإنها في الرحلة تتميز بواقعية شديدة، لذلك فهي خالية من أي دلالات أو أبعاد متعلقة بالمؤلف أو وظائف سردية، لأنها معروفة بأنسابها وتاريخها وانتماءاتها.

والشخصيات في الخطاب الصوفي يصطلح عليها "الشخصيات الرؤياوية/ العجائبية"، <<وهذا النمط من الشخصيات في الحقيقة هو غير منبت عن الشخصية المرجعية، إنما هو نوع من تحولاتها الغرائبية حين يأتي

بأفعال عصبية يستحيل فيها من كينونته الحقيقة المألوفة إلى كينونة غيبية سوى في الرؤية الواقعية أم في الرؤيا الحلمية. ودائماً يكون هذا التحول دليلاً على (صدق) دعوى الصوفي وصحة مذهبه وطريقته التي تدهش أو تذهل ليس عامة الناس فحسب، بل أهل الطريقة أيضاً كل بحسب مرتبته وأحواله ومقدار علمه ونوع تجربته. وأكثر ما يظهر هذا اللون من الشخصيات، في قصص الكرامات والرؤى والمنامات، ليتم فيها ترسيخ واقعة (الاختلاف والتمييز) التي يمتاز بها الصوفي>>.[24]

وشخصيات الورثلاني غير بعيدة عن مسار رحلته ولا عن غرضها، فكلها مرتبطة بالحج أثناء الرحلة كجملة المرافقين من الأهل والأصحاب والتلاميذ والمريدين، أو في طريقها كالمشايخ والأولياء والصالحين الذين قام بزيارتهم أو زيارة أضرحتهم، وهنا لا أود الدخول في مسألة زيارة الأضرحة والقبور وموقف علماء الدين ومن المتصوفة لأن ذلك عندهم /أي المتصوفة من أبرز الطقوس/ رغم الجدل الذي يرافق هذا السلوك [25]، وقد حرص أثناء تقديمهم التعريف بهم ولو باختصار كأن يذكر أنسابهم أو انتماءهم وأوطانهم أو الكرامات التي عرفها منهم كما في قوله: <<قال شيخنا المذكور ما نصه قال أبو سالم وأخبرني من أثق به أن هذا الصالح كان يجلس عند زيتونة عند قبره حين كان حيا فجاء رجل بعد موته فجلس في ذلك المحل وشرب الدخان فلما نام ذلك الرجل في الليل جاءه ووقف عليه وضربه على رأسه وقال له مكان كنت أجلس فيه فجئت إليه فنجسته فأصبح الرجل أعمى.>>[26]

ومنها أيضا خبر أورده عن نساء أحد فضلاء مدينة قسنطينة:<<وأما زوجته المذكورة فقد شاهدت منها أمورا عظيمة وقد سمعت منها أنها قالت كنت أولا قد ملكني الحال وغلبني والآن ملكته وغلبته وكانت تجتمع مع رجال الغيب وقالت أيضا فمهما صدر مني ما لا يحل من كلام أو إشارة أو رؤية إلا وبعث الله لي أحدا من خلقه فلا أعلم أنه من الملائكة أو صالح الجن يضربها ضربا على قدر ما خالفت به فيكفر لها ذنبها وغير ذلك من أوصافها الممدوحة وخصالها الكريمة وكانت جماعة من أهل وطننا على هذا الوصف>>[27]

يتضمن هذا الخبر أكثر من غريب، فحكاية أن يرسل للمرأة من يعاقبها وعدم التمييز بين الصالح منهم وبين الجن أشبه ما تكون بالخرافة، ثم إن حكاية الجن ووجودهم من عدمه فيها اختلاف بين الناس وحتى رؤياهم بين مؤيد للفكرة وبين من يعتبرها من نسج الخيال، أو نوع من التوهمات المرضية التي تجعل الشخص يرى ما ليس موجودا.

من غريب حكايته قوله: <<ثم أن من فضل الله علي أني نزلت على بغلتي ونويت رؤية الخطيب الذي يخطب بها لتعلق همتي به وتاقت نفسي أيضا لسماع كلامه وهو لا تكمن رؤيته لازدحام الناس عليه ربما قاصده أن أحتمل

المشي إليه والاجتماع به مات أو انكسر وذلك معلوم بالعيان إلا إن سبق إلى مكان قبل اجتماع الجموع فيها فتوجهت إلى موضعه ورأيته فدخلت الصف الذي يليه والناس حوله بالأعمدة يضربون من يريده فلما توجهت إليه ودخلت من حوله وإذا بالناس تركوا لي ممرا إليه وفرجة لديه إلى أن وصلت إلى الضرابين بالأعمدة فأتى إلي واحد منهم فأخذ بيدي إلى أن بلغ بين إليه وسلمت على ركبته وسمعت كلامه أعني خطبته وتبسم في وجهي وانبسط ولم ينقبض...>>[28]. هنا يجد قارئه غرابة في روايته التي عبّر من خلالها أن له قوة غريبة مكنته من المرور بين حشود الناس دون ضرر أو اعتراض منهم، وهو نفسه ذكر أن عملية المرور وسط الزحام صعبة جدا.

ومما جاء عنه أيضا أن أبا طالب - وهو من أمراء مكة المتأخرين- له كرامات منها أن نورا خرج من قبره وأضاء لجماعة من القراء أمام قبره انطفأت لهم شمعتهم، وذكر أيضا رواية مفادها أن بدويا خرج من مكة بقفص عنب <<فلما وصل إلى قبره تذكر حاجة بمكة فوضع القفص ورجع فجاء سارق ليأخذه فيبست يده والتصقت بالقفص وبقي واقفا حائرا إلى أن جاء البدوي فلما رأى ذلك قال على حسب نيته واعتقاده جاد يا أبا طالب جاد يا أبا طالب جاد يا أبا طالب أطلقه الآن وقد قضيت حاجتي وانطلقت يد السارق>>[29]

والورثلاني أثبت أنه لا يقبل بعض الأمور العجيبة والروايات التي تحدث عنها، وكأنه يميز بين نوعين من العجيب، نوع يمكن تصديقه وأغلبه مرتبط بذوي الكرامات والتجليات ونوع لا يمكن تصديقه واعتبره ملفقا على غرار ما يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم ببلاد الطائف.

ومن عجيب ما ذكره منسوبا إلى سيرة محمد صلى الله عليه وسلم : <<وهنا محال متعددة فيها آثار في الصخر الصلد كأثر ظلف الغزالة والناس يتبركون بها ويقولون أنها غزالة جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وسلمت عليه في ذلك المحل ولم نر لذلك ذكرا في شيء من كتب السير.>>[30]

وفي ذلك يحاول تأييد الخبر بما جاء في السنة فقال: <<ومنها مسجد على شفير الوادي بأعلى البلد فيه شجرة كبيرة لها أصلان متقاربان بينهما مثل ممر الشاة يقال أنها الشجرة التي اعترضت للنبي صلى الله عليه وسلم في طريق له فانشقت شقين حتى مر بينهما وخبرها مذكور في بعض الأحاديث.>>[31]

خلاصة:

الرحلة بنية حكائية تقوم على سرد عدد من الأفعال والأحداث التي حصلت في الأغلب لصاحبها على امتداد خط سير معلوم يبدأ من لحظة خروج الرحالة إلى مقصده إلى غاية رجوعه منه.

والتعامل مع رحلة الورثلاني كونها كتبت بأسلوب نثري لا يعني فصلها عن باقي النصوص النثرية السردية، فنصه -وإن كان خاضعا في عمومه كباقي النصوص الرحلية لسلطة التاريخ بالنظر إلى ما فيه من شخصيات واقعية وأحداث-، لم يخل من خيال وانسجام واتساق وأفكار وعواطف يجعل المطلع عليها أو دارسها لا يغفل عن جانبها الأدبي حتى وإن قدمت في قالب سيري، كونها تحكي رحلة صاحبها من مكان معلوم إلى آخر عودة وإيابا.

أما ما يخص الجانب اللغوي منها فالرحالة لا يبدو عليه كبير اهتمام بتنميق لغته حتى تكون بالمستوى الأدبي المطلوب، فهي أقرب إلى التقرير الصحفي من حيث العرض وبساطة التقديم، وكأن ما يعرضه من أحداث لا يحتاج إلى تحايل كبير منه حتى يتم تصديقه وهو بالأساس يعتقده ولا يعتبر نفسه ناسجا لخيال أو مستحيل، فما يصادفه القارئ من خبر غريب واقعي حقيقي بالنسبة له، ومع ذلك تخللت رحلته بعض الجمل والتعابير المنزاحة عن المعتاد تصويرا ووصفا كما في قوله: <<ولم نزل كذلك بصواعق الشوق ترتعد الجوارح منها وتعطش.... فجناح العشق له ريش>>[32]، وقوله يصف فراق الأصحاب من الأحبة والزهاد والعارفين: <<فغربت شمس الاجتماع، وكسف نور المشاهدة والانتفاع، وإنما أقبل ليل البين وظلمة الإقصاء والانقطاع، تتجافى جنوبنا عن مضاجع الأنس وضاقت بنا الوحشة.>>[33]

وقوله وهو بالمسجد الحرام يصلي: <<فلم يمر علي زمان أحلى من هذا الزمان، ولا استقررت بمكان أحلى من هذا المكان، فذلك الوقت هو عيد الأرواح، وجنة الأشباح، وبستان الفؤاد يزهر بالأقاح،...>>[34]

مصادر البحث ومراجعه:

[1]- الطاهر حسيني: (1434هـ، 1435هـ، /2013، 2014م) الرحلة الجزائرية في العهد العثماني بناؤها الفني أنواعها وخصائصها، أطروحة دكتوراه، إشراف الدكتور العيد جلولي، جامعة تلمسان، ص: 162.

[2] - عبد الرحمان عزي: التواصل القيمي في الرحلة الورثلانية الموسومة بنزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، ص: 2. عن الأنترنت.

[3] - عبد الرحمان الوكيل: (1984م) هذه هي الصوفية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط4، ص: 19. ماسينيون ومصطفى عبد الرازق: (1984) التصوف، تر إبراهيم خورشيد، عبد الحميد يونس، حسن عثمان، دار الكتاب اللبناني، مكتبة المدرسة للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، ص: 32 وما بعدها.

[4] - السعيد يقطين: (1997) الكلام والخبر مقدمة للسرد العربي، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، الدار البيضاء، المغرب، ط1، ص: 200.

[5] - وداد مكاوي حمود: (2012) عجائبية الرؤية عند يوسف، مجلة جامعة بابل، مج 20، العدد 2، ص: 372.

[6] - الورثلاني: (2006) نزهة الأنظار في فضل التاريخ والأخبار، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، ط1، م1، ص:113.

[7] - ينظر: المصدر نفسه، م 2، ص: 651- 656.

[8] - ينظر: القرآن الكريم: سورة يوسف، سورة يونس، سورة الصافات، سورة الفتح، سورة الأنفال.

[9] - سهل بن رفاع العتيبي: الرؤى عند أهل السنة، كنوز إشبيليا، ص: 11.

[10] - المرجع نفسه، ص: 532.

[11] - الوثلاني، الرحلة، ج1، ص: 15.

[12] - المصدر نفسه، ص: 555، 556.

[13] - المصدر نفسه، ص: 557.

[14] - المصدر نفسه، ص: 630، 631.

[15] - سهل بن رفاع العتيبي: الرؤى عند أهل السنة، ص: 44.

[16] - المرجع نفسه، ص: 62، 63.

[17] - الورثلاني: الرحلة، ص: 568.

[18] - ينظر: المصدر نفسه، ص: 569.

[19] - المصدر نفسه، ص: 569.

[20] - المصدر نفسه، ص: 572.

[21] - ينظر: المصدر نفسه، ص: 574.

[22] - المصدر نفسه، ص: 575.

[23] - المصدر نفسه، ص: 508.

[24] - ناهضة ستار: (2003) بنية السرد في القص الصوفي المكونات الوظائف والتقنيات، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ص: 186.

[25] - عبد الرحمان الوكيل: هذه هي الصوفية، ص: 101، 102.

[26] - الورثلاني: الرحلة، ص: 734، 735.

[27] - المصدر نفسه، ص: 803.

[28] - المصدر نفسه، ص: 483.

[29] - المصدر نفسه، ص: 509، 510.

[30] - المصدر نفسه، ص: 515.

[31] - المصدر نفسه، ص: 515.

[32] - المصدر نفسه، ص: 527.

[33] - المصدر نفسه، ص، 743.

[34] - المصدر نفسه، ص: 531.